# الفيلم الأمريكي – سياسة القوة أو قوة السياسة

العابد عبد العزيز جامعة وهران 1 –أحمد بن بلة

" إنّ الفيلم السينيمائي والتلفزيوني الذي ينقل فكرا قادما من أرض ليست أرضنا، و إديولوجيات مجتمعات لا تمثل فكرنا وعقيدتنا وتاريخنا، يمثل أكبر خطر يهدّد مجتمعاتنا العربية، وذلك لأنّ بيئتنا الإعلامية بيئة نامية تتخلّلها ثغرات تربوية وتنموية وثقافية عديدة ... استغلّها الإعلام المعادي في خرق أمننا الثقافي والاجتماعي والتربوي"[1]

لقد أدّى ظهور ما يسمّى بالنّظام العالمي الجديد، والذي تقف الولايات المتحّدة الأمريكيّة على قمّته، و ذلك بفضل سيطرتها على كافّة مناحي الحياة التكنولوجيّة، والإعلاميّة، و العلميّة، و هيمنتها على مصادر المعلومات، وامتلاكها لأكبر مؤسّسات الإعلام، فأصبحت هي المتحكّم في مصادر المعلومات (المسموعة و المرئيّة). وصناعة البرامج و الفيلم، هذا كلّه أدّى إلى سيطرتها على الدّول الناميّة اقتصاديا و سياسيا و أمنيا، كلّ ذلك دون أن تقوم بغزوها عسكريا.

إنّه غزو من نوع آخر تقوم بها أمريكا، غزو غير تقليدي لا تستخدم فيه القوّة العسكريّة، فبعد سيطرة الولايات المتّحدة على الأجساد و الأرض، ها هي تحاول السيطرة على الفكر و العقل، من خلال تنويمه و توجيهه، ومحاولة غرس فكرة التبعيّة و "القابليّة للاستعمار" في نفس الإنسان العربي المسلم، و ذلك تحقيقا لما جاء به "ابن خلدون" في "مقدّمته الشهيرة"، و أيضا فكرة "تقليد الضعيف للقوي". وهذا لن يتأتّى إلا بنشر فيروس فكري في أذهان الشعوب المستضعفة، و هذا الغزو الفكري الثقافي "عن طريق الفيلم السينيمائي، و هو من أشدّ أنواع التسلّط و الاستعمار الثقافي في العصر الحديث، و الذي بدأ تأثيره خاصّة بعد التطوّر في وسائل العرض، و التصوير الفيلمي، المانيوتسكوب، و الفيديو"[2].

فأمريكا تستعمل سلاحا فتّاكا يعمل جنبا إلى جنب مع السّلاح التقليدي، ألا وهو السينما وقد تهشّمت وتقلّصت جميع صناعات السينما القومية و لم يبق في

الساحة سوى السينما الوحيدة المؤثرة و هي الأمريكية "إنّها السينما الوحيدة التي علمت منذ البداية أنّه ليس كل ما هو واقعي أو موهوب يصلح فيلما، و قد راح فنّانوها يواصلون الإبداع و الابتكار والتجديد"[3].

وعلى عكس الأفلام العالمية الأخرى و التي تعتمد على الواقعية و الواقعية الاجتماعية فقد جاءت الأفلام الأمريكية، و التي تعتمد على العنف و المغامرات _النشاط الحركي_ و الرعب، و الأفلام اليوليسية، فأخذت الأضواء من أي سينما أخرى.

وتختلف نوعية الأفلام الأمريكية المسوقة للعالم الثالث، من أفلام الحرب " فمن بين جميع الأنواع الأمريكية، انفردت الأفلام الحربية بأنّها كانت متنفّسا لحوحا للبروباجاندا، بمعنى توصيل رسالة اجتماعية ذات وجهة نظر محدّدة سلفا، أكثر منها كرسالة تتطور بكاملها من الصراعات الدرامية التي تتطور على الشاشة، في الأفلام الحربية، حتى الجيّد منها، سوف تقف الشخصيات إمّا مع أو ضدّ و هذه الظاهرة السينمائية تقع سواء أكان البلد أو لم يكن في الحرب خلال وقت إنتاج هذا الفيلم، ففي وقت الحرب تكون تجسيدات الشاشة للعدو، أشدّ سلبية و جاهزة القالب، حتى لدى مقارنتها بما ستكون علية تجسيدات هذا العدو بعد عدّة سنوات."[4]

وهي تسوّق للقوّة العسكريّة (أي فكرة الأمريكي الذي لا يغلب)، و هي في أغلبها تحاول التأسيس لروح الهزيمة في أذهان الشعوب المستضعفة (إذ لا مجال للمقاومة...فأمريكا من ينتصر أخيرا)... هذه هي الفكرة الأساسيّة لمجمل هذه الأفلام، لكن يجدر بنا التنويه إلى أمر بسيط لا يمكننا إغفاله، إذ إنّ ما عهدناه في الأفلام الأمريكيّة، أنّها دوما منتصرة، لكن الواقع على النقيض من ذلك، فأمريكا خسرت "حرب فيتنام"، وخسرت حرب لبنان، و خسرت حوالي خمسمائة جندي ماريز في عمليّة إنزال في مقديشو (الصومال) في أكبر ضربة لسمعة الجنود الأمريكان، (الذين بكوا كالأطفال على المباشر (ظهر ذلك في عدّة قنوات اخباريّة )، وأمريكا حاليا تخسر في أفغانستان، و قد انسحبت بخزي من العراق، إذن فهي غطرسة سينيمائيّة لا مبرّر لها، و كذب صريح لا يخفى على عاقل، ف"رومبو" الأمريكي لم نر له ظلّا في الواقع.

وهناك أفلام من نوع آخر هدفها مغاير لكنّها تصبّ في نفس اتّجاه ضعضعة الفكر العربي خصوصا، و هي " نوعية هابطة من أفلام الإثارة و أفلام الأكشن والجريمة المنظّمة، هذا كلّه في إطار دراسي جذّاب، يتّفق وعقليّة المشاهد النمطي، أو المتلقّي العادي" [5]، و زيادة على أنّ هذه النوعيّة من الأفلام ترمي إلى زعزعة أخلاق المتلقي فمحتواها يهدف أيضا إلى نشر ثقافة الأمريكان، و الذين يعتبرون أنفسهم هم الأفضل، فهم في أعلى قمّة الهرم كما نظّر لذلك الكاتب الأمريكي ذو الأصول اليابانيّة (فرانسيس فوكوياما) في كتابه (نهاية التاريخ). إذ إعتبر أنّ الإنسان الأمريكي هو آخر تطوّر للجنس البشري...؟ فالغزو المكثف للفيلم السينيمائي هو أسلوب تتّبعه أمريكا للإبقاء على واقع من السيطرة و التسلط، و وضع من الجمود الفكري لدى المتلقي العربي، إنّ تفوّق أمريكا في صناعة الثقافة و المعلومة، يؤهّلها لمزيد من التدخّل و الهيمنة و التسلط و تهديد الهوية و الأمن الثقافي.

**أفلام الإرهاب :**

-لا يمكننا إعطاء تفسير موضوعي للإرهاب والإرهابي، لكن وفق الرؤية الأمريكية، فالإرهابي ليس إلا (المسلم) و الإرهاب هو (الإسلام)، و الحرب في مجملها هي بين الخير والشرّ، بين المحبّة التي جاء بها (ياسوع) والقتل الذي جاء به (محمد صلى الله عليه و سلم) بين (الإسلام و المسيحية) فهي إذن (حرب صليبية جديدة) وإن كانت مضمرة ولكن الرئيس الأمريكي (بوش الابن) قالها صراحة في زلة لسان منه قبيل غزو أفغانستان سنة 2001م، قال: (إنها حرب صليبية ثانية).

وهذه الأفلام وإن كان لها أساس منطقي فهو السخرية من العرب والمسلمين و استعداء الغرب عليهم، إذ لم تكف السينما الأمريكية بصفة خاصة عن وصف العرب والمسلمين بأنّهم مجموعة من الهمج و الجهلة، بل وإرهابيين، سواء أكان ذلك بصفة مباشرة أو غير مباشرة، لتصل أفكارهم إلى المشاهد الغربي و المشاهد العربي المسلم بالتحديد.

" و الجدير بالذكر أنّ النّقاد الأمريكيين قد أعلنوا أنّ هوليود قد أنتجت أكثر من 150 فيلما يسخر من العرب و المسلمين منذ سنة 1982م حتى الآن، و من أمثلة هذه الأفلام فيلم قرار إداري بطولة "ستيفن سيقار" و فيه يقوم الإرهابيون المسلمون بخطف طائرة ركاب و تهديد من عليها بالقتل، و يظهر هؤلاء الإرهابيون و هم ملثمون، ويتكلمون العربية ... فيلم أكاذيب حقيقية بطولة "أرلوند شويز نيقر" و فيه يقوم الإرهابيون بإطلاق صاروخ نووي على فلوريدا"[6]

و أفلام أخرى و كلّها تصوّر المسلمين و العرب على أنّهم إرهابيون مجرمون متعطّشون للدّماء، و لا عجب أنّ علمنا أنّ هوليود شركة يرعاها اليهود من وراء السّتار، إذ إنّها دأبت على إظهار المسلمين كوحوش لا تحركهم إلا الرغبة في القتل و التّدمير، كل ذلك باسم الإسلام، كما أنّها تصوّر اليهود على أنّهم قائدو العلم و منقذوه إذ لا يكاد يخلو فيلم أو أكثر من الأفلام الأمريكية، من شخصية أو أكثر من اليهود يكون لها دور محوري و هم يحاربون الشر لنصرة الحق والعدل؟ أو ذلك اليهودي العبقري الفذّ في مجاله، الذي لا يستطيع أحد مجاراته أو منازلته، و من هذه الأفلام:

( "يوم الاستقلال" و الذي يقود فيه اليهود العلم للاستقلال من الكائنات الفضائيّة.

" أمير مصر" و هو فيلم كارتون أخرجه المخرج الصهيوني "ستيفن سبيلبيرج" (و الذي قالت والدته بعد مشاهدتها الفيلم "إنّي الآن قد أنجبت نبيّا يهوديا يمسك التوراث بيمناه و الكاميرا بيسراه.

فيلم "المومياء" و هو يظهر الفراعنة و هم يتكلمون العبرية " )[7]

(كما لا يخفى قديما و حديثا أنّ اليهود اهتموا بنشر الفساد و الانحلال الخلقي في المجتمعات لإفسادها والتمكّن منها " إذ ذكر في البروتوكول التاسع : لقد أفسدنا الجيل الحاضر من غير اليهود و لقّناه الأفكار والنّظريات الفاسدة، وفي البروتوكول التاسع عشر : لقد عانينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدّين، و لقد نجحنا بالإضرار برسالتهم التي قد تكون عقبة في طريقنا "[8]

ونرى ذلك جليا في المئات من الأفلام التي تمسّ العقائد الدينية و تسخر منها و لعلّ أشهر تلك الأفلام " الإغراء الأخير للسيّد المسيح و الذي عرض في أمريكا عام 1988م ويظهر فيه المسيح عليه السلام بصورة ماديّة مشوّهة.

فهذه نوعية أخرى من الأفلام الأمريكية المسوقة للعالم العربي، وإذا أردنا التأريخ لها "فلن نجد تاريخا أفضل من ما بعد 11 سبتمبر/ أيلول، كما لن نجد أفلاما أحسن من فيلم الخائن traitor 2008م و فيلم "وجهة نظر"vantage point 2008م، و فيلم "المملكة the kingdom 2008م، و الملاحظة الأساسية حول هذه الأفلام هي إشتراكها في مجموعة من الخصائص البنيوية والسياقية، كتزامن صدورها واستقطابها لكبار نجوم هوليود".[9]

أما عن أماكن تصوير هذه الأفلام، فهي في الغالب "السعودية والمغرب أو ليبيا"، أما المغزى العام منها فهي تصوّر عقلية ( الإرهابي المسلم)، "و هي تأتي في سياق نظرة تاريخية أمريكية تنظر إلى الشرق عموما على أنّه عدو الغرب المتحضّر"[10]، كما نظّر لذلك الكتاب الأمريكي "صدام الحضارات" ومفاد نظريته أنّه سيحدث صراع كبير وصدام بين الحضارة الغربية المتمدّنة والتي تقودها أمريكا، والحضارة الشرقية المتخلفة (وهي بنظره تحالف بين الإسلام والكونغوشيوسية الصينية والغرب من ينتصر أخيرا) .

والإرهابي المسلم أو العربي عموما بغضّ النظر إذا كان إرهابيا أم لا، في هذه الأفلام يصوّر على أنّه ( جبان، كذاب، غدّار ، خائن ، مستهتر، لا يهمّه إلا المال... إلى أخر ذلك من صفات الدنائة و المكر."كما أنّ هذه الأفلام تصوّر تناقضات في سلوكيات المسلمين و التي تخالف تعاليم الإسلام، وتخالف قناعاتهم الشخصية كشرب الخمر مثلا..."[11]

والسينما الأمريكية تصوّر المجتمع العربي على أنّه مكون من الشخصيات الآتية :

الأولى: بطلها واحد من شيوخ الصحراء الغنية بالنفط، مالك للجمال وسيارات الكاديلاك الفخمة إضافة إلى حاشيته، وهذا الشيخ ذو سلوك عدواني متخلف ومجنون وذو اتجاهات غريبة في ميولاته السياسية.

الثانية: هي شخصية الإرهابي أو المخطط للإرهاب، ومما يجدر الإشارة إليه، في البرامج المرئية الأمريكية أنّه لا تتوفر أي برامج منصفة في تناولها لتراث العرب و ما قدّموه للحضارة الغربية كما أنّ البرامج التي تشوّه صورة العربي لا تعرض في أمريكا فقط بل تصدّر إلى الخارج أيضا، فهي تشوه صورة العربي المسلم في كافة أنحاء العالم، وذلك ما أعطاه الصورة النمطية المتعارف عليها.

ولا تقتصر عملية مكافحة الإرهاب على الأرض، والأفلام فقط بل امتدت أيضا إلى برامج الفيديو الموجّهة للأطفال، فمثلا في برنامج فيديو على اللاعب (الذي هو ليس إلا طفلا عربيا مسلما) أن يتقمّص دور جندي ماريز أمريكي، يقوم بمهمّته في العراق مع زملائه، و هؤلاء الماريز يصطدمون بإرهابيين يتحصّنون في مسجد، وهناك قناص يعتلي صومعة المسجد، وليس على اللاعب إن أراد إنهاء المهمّة و اللعبة إلا القضاء على ذلك القناص بواسطة قذيفة من سلاح "أربي جي 7" تدمّر القناص وصومعة المسجد، وهذا في نظري ما هو إلا تحقيق لعدّة أهداف، فهو ضرب عصفورين أو أكثر بحجر، إن لم نقل ضرب أكثر من عصفور بدون استعمال أي حجر.

إنّ الحلم الأمريكي منذ البداية هو أمركة العالم، وهذا ما قرّره لاتيودور روزفلت بمقولته: قدرنا أمركة العالم، فتكلموا بهدوء، عندئذ يمكنكم التوغّل بعيدا، وهذا ما ذكره الرئيس الأمريكي (ريتشار نيكسون) في كتابة "الانتصار دون حرب"، إنّ أمريكا إذا أرادت تزعّم العالم فعليها نشر القيم الأمريكية"[12]

وبهذا فالأمركة ليست أسطورة سياسية جديدة أو شمّاعة يعلق عليها الإخفاق الحاصل في عالمنا العربي والإسلامي حاليا، بل هي واقع محسوس نعيشه حاليا، و هو خطر إستراتيجي يهدّد الاستقلال الاقتصادي و السياسي، والهوية الثقافية لأمّتنا وفي سياق ذي صلة يقول تقرير للكونغرس الأمريكي "يمكننا تحقيق أهدافنا السياسية بالتعامل مباشرة مع شعوب الدول الأجنبية بدل التعامل مع حكوماتها ... إذ يمكن اليوم أن نصل إلى قطاعات كبيرة من السكان في مختلف البلاد و أن نقوم بإعلامهم و التأثير في إتجاهاتهم و يمكن أن نحرّضهم على سلوك طريق معيّن، ونترك تلك الشعوب تمارس ضغطا على حكوماتها 13"

كما تتهّم البرامج التلفزيونية الأمريكية بالسعي إلى طمس الثقافة الوطنية و القومية لصالح الثقافة الدخيلة في تلك البرامج ما يشكل خرقا للتقاليد والقيم الدينية والأخلاقية السائدة في العالم العربي "إذ أشار بحث صادر عن اليونيسكو إلى أن إحدى المحطات التلفزيونية بلبنان عرضت برنامجا تلفزيونيا أمريكيا يشجّع المراهقات على تناول حبوب منع الحمل".

والسبب في السيطرة أنّ أمريكا ترى نفسها على أنّها القوّة الاقتصادية الرئيسة الوحيدة التي تتوفر لها صناعة ثقافية للشباب قادرة على التصدير الفوري، لذلك سارعت للعمل في هذا المضمار وهي تمتلك اليوم كافة أسواق الاستهلاك الثقافي في العالم.

كما أنّ سيطرتها على عقول شبابنا المسلم سيكون لها الأثر المستقبلي القوي على مقوماتنا، إذ إنّ الشباب هم نخب المستقبل ووصول أمريكا إلى عقولهم اليوم في عمر الشباب سيعطيها أفضلية الأرض والجمهور عندما يصبحون راشدين ونافذين في مجتمعاتهم و اقتصادياتهم.

**الهوامش:**

1- نسمة أحمد البطريق – الإعلام و المجتمع في عصر العولمة – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – دط –سنة 2004م – ص 245.

2- مرجع نفسه –ص 237.

3- ستانلي جيد سولومون – ترا مدحت محفوظ – أنواع الفيلم الأمريكي ص 10.

4- مرجع نفسه –ص 320.

5- نسمة أحمد البطريق - مرجع سابق – ص 238 .

6- أشرف شنيوي- السنيما بين الصناعة و الثقافة- الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة 2004م – ص 164.

7- مرجع نفسه –ص 166.

8- محمد خضر – صناعة النموذج السنيمائي الأمريكي – اكاديميّة الفنون – فليوب مصر – عدد 23 – ص32 .

9- سليمان الحقيوي – سحر الصورة السينيمائية (خبايا صناعة الصورة) – دار الراية للطباعة و النشر والتوزيع–ط 1 – سنة 2013م – عمان الأردن - ص 43.

10- السينما و التاريخ –كتاب دوري – العدد الأول – شركة الأمل للطباعة و النشر – سنة 1992م –ص 102.

11- سحر الصورة السينيمائية – مرجع سابق –ص 45

قيس جواد العزاوي – الإعلام الغربي و قضايا الهوية و الثقافة ( مركز الدراسات العربي الأوروبي – بيروت 1998م – ص 72

12- وسام فاضل راضي – الإعلام الإذاعي و التلفزيوني الدولي – سنة 2013م – ص 45 .

13- ناطق خلوصي – مقالات في التلفزيون – الموسوعة الصغيرة – دار الشؤون الثقافية العامّة – بغداد – 1991 م– ص 74